تنويه

اتَّبَعَ هذا الكتاب في الرسم الإملائي لبعض الألفاظ قواعد اللِّسان العربي الأصوَب، مثل لفظ "هيأة" الذي يوافق وزن لفظ "فجأة" مهما يكُن الشائع خطأً غير ذلك، وجمعُها هيآت. كما حافظنا في كل الكتاب على لفظ "القرءان" برسمه القرءاني، والنسبة إليه "قرءاني" ولم نلجأ إلى رسمه الإملائي "القرآن". وحافظنا أيضاً على ألفاظ مثل "شؤون" و"مسؤولية" على قاعدة الهمزة المضمومة بعد سكون، أو ما قبلها مضموماً.

كذلك لفظ "مئة" الذي على مثال لفظ "فئة" جاء حسب الرسم العادي حيث استقر الرسم القرءاني على "مائة". أما في الألفاظ المعرَّبة فقد كُتِبَت قريباً من نُطقِهَا مثل "الفِدْراليَّة" و"اللِّبْراليَّة" وتركنا "الديمقراطيَّة" و"الديكتاتوريَّة" على ما شاعت عليه من تحويل الكسرة إلى مدٍّ يائي، كما التزمنا ذلك في أسماء البلاد شأن "أمريكا" وليس "أميركا"، وأفريقيا وأثيوبيا (بالهمزة المفتوحة)، وأثبتنا همزة إريتريا بالكسرة.

كذلك بعض مُلاحظاتٍ على تصريف الألفاظ، مثل لفظ "الروح" المُذكَّر في لسان القرءان والشائع تأنيثه في لسان العرب، وصيغة "فَعُول" صفةً يستوي فيها المُذكَّر والمُؤنَّث في لسان القرءان والشائع تأنيثها في لسان العرب، ونجدها في هذا الكتاب على الطريقتين. كما جاءت مركبات مثل "الحركة الطلاَّبية" و"الحركة العمَّالية" منسوبة إلى دلالة الجمع لاعتقادنا في صواب ذلك، كما سمَّينا من يمارس مهنة الصِّحَافة بـ"الصِّحافي" نسبة إلى مهنته، ولم نسمِّه صحفِيًّا نسبةً إلى الصُّحُف فضلاً عن النسبة الشائعة الخاطئة "صَحَفي".

obeikandl.com

الأشياء تتداعى.. أو..
خواطر اليوم الأوّل

مَدِّيت عَلَى الأمَل القَرِيبْ أشواقْ كَتِيرَة وقَصَّرَت
لا بتَعْرِفْ الزُولَ البِجِيكْ وَلاَ البِيْجِيك بِيعَرْفَك

مطارُ الخُرطوم صباحَ الثُلاثاء يومَ السَّادِسِ والعِشرين من سَبتَمبَر (أيلول) عام ألفَيْن.. اللحظة مُتحَارِجَة شكسبيريَّة.. "نكونُ أو لا نكون". وطائرة الخُطُوطِ الجويَّة السُودانيَّة على رصيفِ الإقلاع، باريس بَدَت أقرَب كثيراً من أُمدُرمان "والنيل البَعيد" كما يقول صلاح أحمد إبراهيم، «والنيلُ بعيدٌ جداً وقريبٌ جداً والنيلُ ليس موجودٌ أصلاً» كما يقول الطيب صالح، ساعَةَ غَادَرَ الخُرطوم آخر مرَّةٍ عام ١٩٨٧م، كما أغادرُ أنا اليوم، مساحة الأسَى في قلبي تفوقُ الخوف بكثير بل لا خَوفَ البتَّة، لكن الأسَى امتدَّ واجتاحَ فتَشَابَهَت عليَّ المشاعر واختَلَطَت، الأسى صافٍ مثل سماء الخُرطوم، ولا شئ غيرهُ في قلبي.. ضابطُ الأمن هو الذي أخبَرَنا ألاَّ أسماء محظورةٌ لديهم، وأنهُم مشغولون جداً بمُغادرة الرئيس البشير إلى أسمرا، ذات اللقاء الذي جَمَعَهُ إلى السيِّد الميرغني، وأخبَرَهُ فيه أنه لم يُصَادِر ممتلكاته، ولكن الذي فَعَلَ ذلك هُو "شيخ حسن".. الرئيسُ يؤدِّي دورَهُ في مقطوعة الإقصاء بمهارةٍ يُحسَدُ عليها، هي ذاتُ المهارة التي أدَّى بها كلَّ الأدوار السابقة في سِيمفُونيَّة "التمكين". ضابطُ الجوازات تأمَّل في جَوازي للحظة، وسأل: «فُلان ذاتُه وَدَّ الشيخ.. أين هُو!؟».. «ذَهَبَ لزيارة والدته في المستشفى، ورأينا إكمال الإجراءات كسباً للزمن».. «إذا كُنَّا أكاذيب، فنحنُ أكاذيب من صُنعِ أنفُسِنا».. إحدى عِبارَاتنا المُحبَّبة التي اقتبسناها من رواية "مُوسِم الهِجرَة" ووظَّفناها في سُخرِيَّتِنا ضدَّ الذين يَكذِبُون، فنحنُ لا نَكذِب، ولماذا الكَذِب في بلادٍ نملِكُها ولا تملِكُنا.. على غير موعدٍ، حيَّاني بمَوَدَّة دافقَةٍ جنرالٌ طَلْقُ المُحَيَّا لا أذكرُ أني رأيته من قَبْل، ولكني نظرتُ إلى كتفه فراعَني عددُ النُّجوم والسُّيوف التي تَتَلامَعُ عليه، وبين ابتسامته الضافية وحرارة السلام وصفحة المجد على الكَتِفين، قرأتُ في لحظةٍ تُشبِه لمعة البَرق تراجيديا لحظتي.. مُنذُ عشرِ سنواتٍ كانت ثورة الإنقاذ ولكنَّها انتهت في ١٢/ ١٢/ ١٩٩٩م، المُكنَّى بـ"الرابع من رَمَضَان".. دَخَلتُ صالة المُسافِرين لأوَّل مرَّة، رغم أنَّني أسافِرُ في كلِّ عامٍ مرَّات، لكن من صالاتٍ

أخرى لها ألقابٌ أخرى، والنيلُ بعيد.. بدلتي في حقيبة اليد، وكذلك ربطةُ العُنُق، حتى أبدو عادياً كَمَن لا يَهُمُّ بسفرٍ.. وعلى عجلٍ ودَّعتُ صديقيَّ وعَبَرتُ إلى "بوَّابات الرحيل"، والثالث بعيد بعد أن أكمَلَ الإجراءات، ولا وداعَ وِفْقاً لُمقتَضَى الخُطَّة.. شاعرٌ من أُمدُرمَان ولا رَيْبَ الذي قال:-

مِنُو العَمَّق جُذُور العِزَّة جُوَّه الطِّين
وما هَمَّاهُو سَاعةَ الرِّحلَة للمجهول
منو السَلَّم صُغارُو الغُول
وكان اتغَشَّه لم يتأمَّل العِيش المَلَى القَندُول

محمود درويش هو الذي قال: «هِي هِجرَةٌ أخرى فلا تَذهَب تماماً».. مساحة الأسى أغلبُ من مساحة الحُب.. والحُب سيِّد اللحظة، ولكنَّه لم يَشَأ أن يُعَبِّر عن نفسه أمام احتمالات المعقول واللامعقول.. رجُلُ الاستخبارات دَلَفَ نحوي بالتحايا والسلام، وعَيناهُ ويَداهُ تَبسِطَان السُّؤال: «هل ثمَّة خدمة؟».. لكنه انحَسَرَ مُسرِعاً بإشارةٍ من عَيْنِي اليُمنى.

نحنُ الحكومة والنظام ونحنُ سَنَدُه العقائِدِي والفِكرِي.. لكن في نفسِ اللحظة نحن أعدَى أعدَائِهِ وكِبارُ المُتآمِرين ومَكمَنُ الخطر.. أسمعُ أزيزَ الطائرات في مُدَرَّج المطار، وتلفحُني دَفقَةُ رياحٍ حارَّة بحُبَيِّبات الرَمْلِ، ولا شئ يُخرِجُني من استغراقي في تأمُّل هدير العَدَم الذي أصغَى إليه ابن خلدون على شاطئ المُتوسِّط، وهو يتأمَّلُ الموج الذي ابتَلَعَ زوجتَه وأبناءَه في حادث انقلاب السفينة، وهُم يقطعون الرحلة من تونس إلى مِصرَ للِّحَاقِ به.. موتُ والِدَيه بالطاعُون، وغَرَق أسرته في البحر عَمَّق لديه الإحساس بِهَشَاشَة المَسعَى البَشَرِي وتفاهَتِه، سِوَى أنَّ إيمانَه بالله ثَبَّتَهُ واستطاعَ أن يُسبِغَ معنىً على صُرُوف الدَّهر.. النسيج اللَّزِج امتدَّ مثل السَّرَطان واحتوانا فروع.. في ذاتِ لحظةِ المَعرِكَة والتلاحُم وَجَدنا الذين أفرَغُوا عُمرَهُم يُعِدُّون لهذه الساعة قد انحازوا إلى الطَرَف المُقابِل فالحَربُ أساساً لم تكُن بين عَدُوَّين، والوثيقة التي كَابَدَ في سبيلها جيل من الناس ورَوَتها دماءٌ عزيزة اختُصِرَت باعتبارها وَرَقَة مثل سائر الأوراق وليست عُصارة الكِتابِ المُقَدَّس والجِهادِ المُقَدَّس.. الأجيالُ التي كَابَدَت من الناس لم تكُن تَدرِي لماذا كَابَدَت والشُّهَداءُ ماتوا لغير ما هدفٍ واضح، وبعضُنا لا زالَ يُجاهِدُ لأنه يعتقدُ أن القضيَّة لا تزالُ قائمة. ما يحدُثُ هو مسرحيَّة من تأليف شيطانٍ هازئٍ ساخِر وما يحدُثُ هو عينُ الحقيقة وصَميمُ الجِبلَّة البشريَّة عندما يستغرِقُها عُنفُوان السُّلطان وسَكرَتُهِ سنواتٍ وسنواتٍ بغيرِ عِلمٍ قادرٍ

وجهادٍ ظاهر.. شَعرَةُ مُعاوِية تنقطِعُ ويَتحوَّل الابتلاءُ إلى لعنةٍ، وذات الذين نَشَأوا تحت أعيُنِنا سنواتٍ بُعِثُوا لاعتقالنا.. لحظَتُنا هي لحظةُ الحَيْرَة العُظمى التي تنتابُ الكِبارَ من المُفَكِّرين والمُبدِعين فيكونُ الشيءُ ونقيضُه حاضراً في ذاتِ الوقت في مخالفةٍ مأساوِيَّة لِبدَائِه المَنطِق.. «فجَهْلِي كَلاَ جَهْلِي وعِلمِي كَلاَ عِلمي» (أبونوَّاس).. «عمَّا نَسيتُ وكِدتُ لا أنسَى وشَكٍ في اليَقين» (بدر شاكر السياب).. «لماذا جِئْتَ إلى أرضي تَنهَبُ وتُخَرِّب.. الدخيلُ هُو الذي قالَ ذلك لصَاحِب الأرض، وصاحبُ الأرض طأطأ رأسَه ولم يقُل شيئاً» (الطيب صالح).. «وهل الغِنَاء إذا تساقَطَت الدُموع هُو الغِنَاءُ؟» (الفيتوري).. علي عُثمان هو علي الحاج، وعَلي الحاج هو علي عُثمان.. وعلي الحاج وعلي عثمان لا وجود لهُما البتّة.. المجلسُ الوطني الذي يحتوي نوَّاب الشعب أبطَلَهُ رئيسُ الشعب بقرارٍ، وأماناتُ الحِزب الحاكِم عطَّلتها الحكومة، والدُّستور لم يُقرأ بعد على نحوٍ يُوافِقُ طُموحاتنا وأشواقنا، والمجلس المُنتخب لم يُنتَخَب، وهذه الحكومة لم تكن يوماً حُكُومَتُنا ولكننا مع ذلك رَوَيْنا شجرتها بدماءٍ غزيرة.

مطارُ شارل ديجول هو مطارُ شارل ديجول، وباريس هي باريس، وليبراسيون ولُومُند ما تزالان تصدُران وتصطفَّان بجانب عشرات الصُّحُف في مقهى المطار.. «طريقُ الشَّعبِ أوسَعُ من زِحَام الضِّيقِ، وقلبُ الشَّعْبِ أرحَبُ من رِحَاب الضوء، ونَبضُ الشَّعْب كُل حِلمٍ بَدَاهُ بِتِم» (محجوب شريف). وفيروز تصَاعَدَ صوتُها طويلاً طويلا.. طلعنا.. طلعنا على الضوء.. طلعنا على الحرية يا حرية.. وأنا مُنذُ صالة مطار الخُرطوم أختَبِرُ هذا الشعور بالتطهُّر من الزَّيْفِ، أعودُ إلى طُقُوسي القديمة قبل أن يتلبَّسنا شيطانُ السُّلطة، أشتري قهوتي وصحيفتي، وأجلسُ في المقهَى الصغير بعد أن اجتزتُ موظَّفي الجوازات، ولكن الرسميَّات ما تزالُ أقرَبُ إليَّ من حَبلِ الوَريد.. الدبلوماسيُّون الذين تتجلَّى فيهم كلُّ أشباح السُّلطة هُم أنفُسُهم أصدقائي الذين قَطَعُوني لمُدَّة عَشْرِ سنواتٍ عن باريس المِترُو والسُّوربون والحَيِّ اللاتيني إلى سيَّاراتهم وبيوتهم ومكاتبهم، مهما تكُن الصِّفَة التي أحمِلُها سِوى أنني أحملُ اليوم صِفَة "مُعَارِض".. ومن دونهم، بل من دُون خلق الله جميعاً سيكون ضابطُ الأمن هو الأقربُ لكل الأسباب العامَّة والخاصَّة.. نعم، لقد قضينا عاماً كاملاً نتبادلُ حِواراً بالغَ الإرهاف والحساسيَّة، في أعقاب الزيارات المُكُوكيَّة للجنرال الفرنسي الكبير حول راميرز سانشيز المشهور بـ"كارلوس"، هل هُو مناضلٌ في سبيل القضيَّة الفلسطينيَّة أم أنه تحوَّل إلى مُبتَز دولي يحتفظُ بقائمة أغنى مئة رجُلٍ في العالم؟! هل انتَهَت موضة نضال السبعينات إلى غير رجعةٍ، وتحوَّل معها أبطالُها إلى

سماسِرَة؟ هل هو مستجيرٌ، أو هو هديَّة مسمُومة؟ وظللنا بعد ذلك لأعوام نتبادلُ دَوَاوِين صلاح أحمد إبراهيم، والمنشُورات الفَرَنسِيَّة، ونزورُ معارض الفنَّانين التشكيليين، سِوَى أني أعشقُ الرسم جداً، وهو رسَّامٌ بالفعل ! أيُّ العِبَارَتَين أصَوَب، وكِلاهُما لأوسكار وايلد:

1. Circumstances might alter cases، but circumstances can never alter principles.
2. Good people doing bad things.

لَسْنَا أوَّل حزب عقائِدِي انشَقَّ على نفسه، ولكن ظَنَنَّا أن عساكرنا خيرٌ من أولَئِكَ وأنَّ لهُم براءة في الزبر، بل إننا نسينا ما دَرَسنَاهُ في زبر الدُنيا وما قالت كُتُبُ علم الاجتماع العسكري.. «لو هُزِمْتَ بَلَمْلِم غُناي ما بخُونُو وأبيع الكلام.. ما بَسَلِّم شرف الدَّواية للهَواجِس ولِيلَ الخِصَام».. «مرَّة شَافَت في رُؤاها طِيرَة تاكُل في جَنَاهَا.. حيطة تِتْمَطَّى وتفَلِّع في قَفَا الزُول البَناها».. «جابوا معاوِية يَشهَد.. شُوف معاوية وغَدْرُو.. لوَّح خَنجَرُو وطَعَن الشفيع في صَدرُو».. «وأحمَد وَدْ سِليمان في المَشانِق بِشمَت».. «وأنا بَحْزَن لي سُفُن جايَّات ما بتَلْقَى البِلاقِيها».. بعضُ الناس تَرَكَ البُيوت الرضِيَّة والسَيَّارات البَهِيَّة والأرصِدَة المِليُونيَّة وتحوَّل إلى قُنبُلة في سبيلِ الإسلام وبعضُ الناس تَرَكَ الإسلام من أجل ذلك، فالعِبرَةُ ليسَت بالرجال والنساء مهما يكونون، ولكن المواقف والمبادئ «اعرَفِ الحقَّ تَعرِف أهلَهُ»، أو كما يُحِبُّ ويرضى ويتقعَّر سادةُ الإسلام الجُدُد «وجوهٌ وسيمةٌ نَاعِمة، ووجوهٌ وسَمَتْهَا النِعْمَة».

وفي الطريق إلى المدينة بَدَت الرحلة طويلة والسَّفرُ ليس قاصداً وغير قريب.. ذاتَ المدينة التي سَلَختُ فيها ليالي أترجِمُ كِتابَ "الحَجُّ" لعَلِي شَريعَتي، وأنا شخصياً الذي كَتَبتُ وبذات القلم: «إنَّ الإنسان في طريقِ احقيقة قد يَقِلُّ ويَتَنَاقَص بين يَدَيْهِ ومن خَلفِهِ الرِّفاقُ، وقد يمشي وحدَهُ آخِرَ الشَّوط».. لكن "النَظَرِيَّة رمادِيَّة والتجرِبَة خَضرَاء" كما يقول لينين -نقلا عن جوته- بين يدي المؤتمر الثالث والعشرين للحزب، وبعد أن أحكَمَ عليه جُوزيف ستالين الحِصَار والعُزلة في عامِهِ الأخير، لكن جُوزيف ستالين هُو نفسُهُ الذي اتخذ القرار بتحنيط لينين واتخاذِ بيتِهِ واستراحةِ جُوركي ومكتبِهِ وكلِّ آثاره متاحِف مُقَدَّسة ساعة إعلان موته.. ميشيل عَفْلَق قضى أعواماً في البرازيل، في غرفةٍ واحدةٍ مع زوجته وأطفاله الأربعة في منزل خاله، وأعلن أن لا علاقة له بالسياسة والحِزب الذي أسَّسه واستلم زِمامَ السُّلطة في بلدين عربيَّين كبيرين قبل أن يتدارَكَهُ الرِّفَاق وهُم في الحقيقة يتدارَكُون أنفسهم، ليقضِي الشَطرَ الأخير الطويل من حياته في شِبهِ عَطَالَةٍ سياسيَّة

وفِكريَّة.. بل كيف أخذ الأمَوِيُّون الحُكم من علي ابن أبي طالِب وهو أوَّل من أسلَمَ وهُم الطُلقاءُ وأبناءُ الطُلقاء، بل كيف أخذه العبَّاسيُّون من الطالِبِيين وهُم وقود الثورة وفِكرُها ودِمَاؤها وشُهَدَاؤها.. قُل سِيروا في الأرض فانظروا.

أما أنا، فلا أتوقَّعُ لنفسي عودةً فإني لا أعودُ عن النُّور كما يقول "بابلو نيرودا"، ولا أدَعُ للأوهام إليها سبيلاً.. نحنُ الذين صَنَعنا قَدَرَنا ومزَّقنا نَسْجَنَا ولم تَهْبِطْ علينا شياطينٌ من السَّماء ولكنها شياطينٌ من صُنعِ أنفُسِنا.. علي عُثمان وليس البشير كان الأوَّلُ في تجريدِ السُّيوف عِوَضاً عن الكلمات، وإبراهيم أحمد عُمَر وليس عبدالباسط سَبدَرَات أدَّي دورَ البطل في تراجيديا الفتنة أو اللعنة.. وسيِّد الخَطيب وليس عبَّاس النُّور هُو الذي تَلاَ عَلَيْنا "مُذكِّرة العَشَرة" في صباح الحريق.. الصِّحافي المأفون ليس مِنَّا، ولكنَّ كاتبَ الـ"بِلاي بُوي" منَّا وَلاَ رَيْبَ.. كم فتىً مِنَّا ولكن ليس مِنَّا يَركَبُ الشَّعْبَ إلى الحُكم مَطِيَّة..

ما أحسَنَ خَواتيم منصُور خَالِد ساعَةَ قَبْسٍ من نار المَجاذِيب هُدَى!

جِدَارُ الدُّجَى أعمَى عُيُوني
وفي يَدي تَسَاقَطَ مِصبَاحِي بِدَمعٍ مُبدَّد
وأينَ بِلاَدِي.. كُلُّ وَجْهٍ رَأيتُهُ قِناع
وأخشَى صِدْقَ وَجهِي المُجَرَّد

المحبوب عبدالسلام المحبوب

obeikandl.com

مُقدِّمــة

فَوْرَ الإعلان صباح ٣٠ يونيو (حزيران) ١٩٨٩م عن ثورة الإنقاذ الوطني في السودان، تطلَّعت إليها أفئِدَةٌ كثيرة داخل بلادها وخارجها تُعَلِّق عليها آمالاً كبيرة، ولم يلبث الإعلام العالمي أن وَضَعَ على جيدها الغَض عبارة "أوَّل حركة إسلاميَّة تبلُغُ السُلطة في العالم السُنِّي"، ذلك بعد عقد كامل من نجاح الثورة الإسلاميَّة في إيران وقيام أول جمهوريَّة إسلاميَّة تُنسَبُ إلى عالم الإسلام الشيعي.

وإذ جاءت الأخيرة ثورةً جماهيريةً ظاهرةً غطَّت أنباءها العالم، كانت الإنقاذ انقلاباً لا يُمايِزَه شيء، لأوَّل وهلة، عن الصورة التقليديَّة للانقلاب الذي يأخذ السُلطة بالقوَّة سِوَى الأنباء المستريبة التي نسبته إلى الحركة الإسلاميَّة، والتي سرعان ما ثبتت يقيناً بعد بضعة أشهر.

فالحَدَث السوداني الذي أسفر عنه ذلك الفجر موصول بقصة حركة إسلامية تجاوزت عقدها الرابع، وهي تعمل في بلدٍ شاسع المساحة مركب الأعراق والأصول، متعدد اللهجات والثقافات، لم تزل مشكلاته تتعقد ولا يسمع عنه العالم إلا أنباء الحرب الأهلية والمجاعة والنزوح، تشرق فيه ومضة حرية ويتأسس فيه نظام تعددي ثم يجتاحه انقلاب عسكري تطيح به بعد سنوات ثورة شعبية كذلك في دورة خبيثة.

لكن حركته الإسلامية ذات وقعٍ وسمعة لا سيما صيت قيادتها الفكري والسياسي، ثم نجاحها الشعبي الذي خرجت به من ضيق الصفوية إلى الجماهيرية الواسعة في عقدين، لتقوم تياراً يمثل حركة الإسلام في المجتمع ينافس قوةً تقليديةً راسخةً في وسط البلاد وشمالها وشرقها وغربها منذ أكثر من قرن، تمضي سِراعاً تحصد أهدافها وفق تخطيطٍ استراتيجي وتمرحُلٍ مُحكمٍ يُسلِّمها من نجاحٍ إلى نجاح.

يتأسس هذا الكتاب على تلك القصة التي أوجزتها السطور السابقة، لكنه كما يحمل عنوانه يتأملها من الداخل ويسترجع مناخاتها في حوار مع النفس، مع أنفسنا بالمعنى الذي يشير إليه القرءان للجماعة المجتمعة على وشائج قويَّة أو على هدف في تداول وشورى، تُمعن النظر في فصولٍ ما تزال من بعض وجهها مائلةً جارية على الأرض، وأحداث كذلك لا تزال حيَّة توالي إشعاعها الذي لا يحصى على من كانوا بعضاً منها وفيها، مما يباعده عن الفكر الأكاديمي البارد، ويقف به أحياناً على حافة العاطفة والانفعال، كما يجعل الإمساك بالحقائق مجردة موضوعية بعد تطاول السنين اجتهاداً عسيراً حاوله الكاتب، يعينه

كثيرون، ألا يغادره بعيداً أو يتدنى عنه إسفافاً.

فقد كانت عشرية الإنقاذ الأولى التي تتصوب إليها غالب فصول الكتاب عملاً مسرحه وموضوعه بلاد وشعب، من حقه على حركة الإسلام لتي قادت تلك الملحمة ووالت وقعها عليه، وهو ما يزال يجهدُ في حاجة معاشه الأولية أن يطعم من جوع ويأمن من خوفٍ، وأن يستشفي من أوبئة وأمراض التخلف، ويأخذ أبناءه لمدرسةٍ قريبة، كما هو يُكابِدُ ليحفظ وُحدته ويُرسِّخ هويَّته ويجد صيغة حُكم نفسه، من حقه أن يطَّلع على كثيرٍ من تفاصيل تلك المرحلة، ويشارك مهما اختلفت قطاعاته ومستوياته في التداوُل والتأمُّل والعِبرة من تلك القصَّة، لجيلهم الحاضر ولأجيال المستقبل.

كما أنَّ من حق كل أولئك الذين ارتبطوا بتلك التجربة وتواصلوا معها وهمُّوا بها ودعموا سَعْيَها مادياً وأدبياً، ضمن شبكة العلاقات الاجتماعية والثقافية الكثيفة للحركة الإسلامية في الداخل والخارج، أن يَطَّلعوا من داخل أطر العمل على بعض وجوه التجربة التي عَلَّقوا عليها الآمال، وأن يعرفوا معالم الطريق الذي انتهى بهم بغتةً وبهتة إلى خيبةٍ في الأمل يستشعرون الخسارة، لا سيما المفاصلة التي شقت الحركة بعد أن أعجبوا بمناهجها التي حفظت وحدتها وبلغت بها النجاح والدولة.

بل إن عبرة الحركات الاجتماعية وتأمل مسارها في التاريخ شأن إنساني تَوَلَّته المناهج بالدراسة والتعقب في معاهد العلم وجامعاته وجماعاته وما تزال تجتهد لتبلغ به أفضل النتائج، مهما تكن "الظاهرة" ثورةً جماهيرية، أو حركة دين أو فكر أو نظريات وتجارب في التنظيم، وهي تستفيد من كل مادة تصلها تأملاتٍ ومذكراتٍ ووثائق وتأريخاً.

وفقاً للفقرات السابقة، يجيء هذا العمل متأخراً لبعض الوقت لكنه يرجو أن يتكامل مع أعمال سابقة تناولت تاريخ الحركة الإسلامية، اكتمل أهمُّها بين يَدَيَّ الإنقاذ، يرصدُ تطوُّرها وكسبها ومنهجها، ثم تأمُّلٍ بين الثورة والإصلاح مسيرة حُكم الإنقاذ بعد منتصف عقدها الأول، ثم المؤلفات التي تناولت قصة "المُفاصلة" من داخل صف الحركة الإسلامية ومن خارجها، ومئات المقالات والمساهمات التي حاولت أن تقرأ أحداثها وتبلغ بعض عبرتها.

لكن هذا الاجتهاد إذ يجيء متأخراً عنها أو قليلاً، لا يجد ما يوفِّر له سُبُل البحث الموضوعي كاملة أو شروط الاجتهاد الجماعي في بيئة مشافهة تتناثر أحداثها بغير توثيق، وهي تضطرب خاصة بمن تَصَدُّوا لهذا العمل استقراراً عابراً ما تلبث أن تعصف به دواعي الترحال في بلادنا الواسعة أو خارجها، وشواغل متصلة تتلاحق الأنفاس لتبلغ

بعض ضروراتها اليومية، ثم اضطهاد لا تكاد تثوب عنه الفئة الباغية على من اتصل عزمه لمدافعتها، في أعظم آفة على العمل الفكري الذي ينشُد الاجتهاد الجماعي والذي يتنفس الحرية ولا يحيى إلا في ظلالها.

عيبٌ آخر من عيوب هذا الكتاب الكثيرة، هو سعة مساحة البحث التي يتناول مواضيعها والنقص الذي لا ينفك عنه أيًّا عمل فكري يمسح فترةً واسعةً من التاريخ أو يحيط بجوانب كثيفة في الحياة، ذلك أن عمل الحركة الإسلامية لدى مرحلة التمكين اتصل بكل جانب في المجتمع والدولة والتحم بوجوه الحياة كافة، وهي كذلك سيرة موصولة لا يتيسر قَصْرُ البحث والتأمل على مرحلة منها أو حادثة فيها إلا وتستدعي أخريات، سُنَّة كذلك في أصل الاجتماع البشري وحياة الإنسان الواحدة.

لا بدَّ من كلمة إذن عن المنهج الذي توخَّاه هذا العمل في تأمل العشرية الأولى وفي الحوار الذي يمثل العمود لفقراته كافة، ذلك أن البحث الموصول بالسياسة والمجتمع والذي يستصحب موقفاً داخل الرواية وإن تعدَّدت الأصوات وتناصرت الأفكار لتهام القصة وتحليلها، يتباعد عن المنهج العلمي الدقيق كما سبقت الإشارة، ولكن يملك الكاتب أن يشير إلى أنه منهج تأمُّلي نقدي يستصحب أكبر عبرة ودرس انتهينا إليه عبر ابتلائنا الكبير، هو الوضوح والصدق والشفافية، دعوة للجميع أن يتأمَّلوا في تأمُّلاتنا ويفحصوا صوابها وخطلها، ويُكملوا نقصها الذي نعتذر إلى الله سبحانه وتعالى عنه، ثم إلى جمهرة القراء الكريمة.

إنَّ الكتاب إذ يصدُر ويُعبِّر عن موقف في القصة والخلاف يرجو أن يستفز، بالمعنى الموجب للكلمة الآخرين في الجهة المقابلة من الطريق، أن يبسطوا كذلك رُؤاهم وتأمُّلاتهم في ساحة العلن، رجاءً مخلصاً أن يكون ذلك حراً من أثقال الصراع والغرض، ومن أسر السلطان وأغلال رغبته ورهبته بما ينفع الناس ويمكث في الأرض.

يبدأ الكتاب بفصلين تمهيديين استشعرتُ حاجة القارئ إليهما، لا سيَّما الأجيال الشابة التي لم تشهد تلك المراحل، خاصة عهد "المصالحة الوطنية" الذي تنزَّلت فيه برامج الخطة الاستراتيجية، ثم عهد "الجبهة الإسلامية القومية" إذ تجلَّت تلك الاستراتيجية في مجتمعٍ كبيرٍ يتفاعل في داخله ويتدافع مع الآخرين بما رسم كثيراً من ملامح المرحلة التالية.

اخترتُ كذلك أن أدخل لعهد الإنقاذ بما يشبه التمهيد، ضرورة أخرى لوصل سياقات الزمن وإضاءة النظري وكيف يبسط أثره على العملي، فجدلُ الفكر والواقع أساسٌ في لُبِّ سيرة الحركة الإسلامية حيثُما استقامت أو اضطربت.

لكن أوَّل العهد والانتقال، مهما يكن في سيرة الإنسانية، يغشاه التشتت والاضطراب، ومن ثم فقد عانينا في جمع متفرِّقات فصل "الإنقاذ الأولى"، نُرَكِّز على أهم ملامحه العامة، ولا نستطيع أن نرصد مؤرِّخين لكل حادثة، فذلك مجالٌ لعملٍ آخر غير هذه التأمُّلات، وقد يفوتنا في ذلك مُهِمٌّ، فنرجو المعذرة.

جاء فصل "من التنظيم إلى النظام السياسي" أوَّل توغُّلٍ نحو القلب في قصة الإنقاذ بعلاقاتها المتشابكة بين باطنٍ وظاهر، بين حركة مجتمعٍ ونظام حكومة، وهي بالطبع حالة انتقال أخرى مهَّدت لنطرق ما وسعنا بيُسرٍ على تفاصيل العشرية الأولى.

أما فصل "الحُكم الاتحادي والجنوب" وما يليه من فصل "الجهاد والجيش" فكلها وُجوهٌ لقصَّة واحدة، قضيَّة الحُكم اللامركزي التي هي أساس الموضوعين، مهما حملت قصة الجهاد من معانٍ ومشاهد إنسانية، ومهما توغَّلت موضوعات الجيش والفدراليَّة في سياق الفكر السياسي وتجليَّاته على الواقع.

أما فصلا "الاقتصاد" و"السياسة الخارجية" فهُما أكثر الموضوعات جِدَّة بعد انتقال الحركة الإسلامية إلى الدولة في بلدٍ خصب الموارد لكنه فقير الحياة، كما هو في جوارٍ كثيف يتجادل على هويَّته ويضعه في مهب رياح الصراع الحضاري على تخوم المنطقة الوُسطى في العالم، الأخصب كذلك بالأفكار وصراعاتها، وهو ما حاولنا أن نبرز ابتلاء تحدياته وكيف تباينت الاستجابات فيه بين "الكبار" و"الصغار".

أعان في هذا العمل واشترك في حواراته بعضٌ من قادة تلك المسيرة التي امتدَّت لعشر سنوات على مستوياتٍ مختلفة، كما أعان فيه جنودٌ مجهولون كُثْر، وكان غالب الذي أعانوا في التحضير الفني من الأجيال التي لحقت بالحركة الإسلامية، مهما تكن صورتها المتجدِّدة، بعد تلك السيرة التي انختمت بالمفاصلة الشهيرة. فأغلبه عملٌ جماعي لا يكاد يُظهِرُ صوت كاتبه خالصاً إلا في الاستهلال المُثبت أوَّل الكتاب امتثالاً لرأي بعض الإخوة، وإذ يتردَّد ضمير الجمع كثيراً في هذه المُقدِّمة فإن العمل غالبه كان كذلك، ولكني مسئول عن كامل صياغته بهذه الطريقة، وعن المنهج الذي تَلَمَّستُ الطريق الوعر إليه بين مناهج أخرى لم تسعفني أدواتي لإدراكها، لكن أولئك الجنود المجهولون حملوا إليَّ عوناً كبيراً، نفسياً وعملياً، وأتطلَّع إلى يوم قريبٍ أشكُرُهُم جميعاً بأسمائهم دون أن يصيبهم أذَى، وإليهم وإلى أجيالهم أهدي هذا العمل.

المحبوب عبدالسلام المحبوب

القاهرة: يوليو (تموز) ٢٠٠٩م